

العنوان:	المدرسة الفلاحية الأندلسية: محاولة في إعادة التحقيب
المصدر:	أعمال الندوة الوطنية : الفلاحة في تاريخ المغرب
الناشر:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز والجمعية المغربية للبحث التاريخي
المؤلف الرئيسي:	بنحمادة، سعيد
التاريخ الميلادي:	2015
مكان انعقاد المؤتمر:	فاس
الهيئة المسؤولة:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز - مختبر البيبليوغرافيا التحليلية والتوثيق للتراث المغاربي - شعبة التاريخ والجمعية المغربية للبحث التاريخي
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	57 - 76
رقم MD:	1039681
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الزراعة، الفلاحة، المدارس الفلاحية، المدرسة الفلاحية الأندلسية، الفلاحة في الأندلس
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/1039681

المدرسة الفلاحية الأندلسية

محاولة في إعادة التحقيب

سعيد بنحمادة *

شكلت المعرفة الفلاحية الأندلسية موضع نقاش بين الباحثين المعاصرين، الذين سعوا إلى تأصيل تلك التجربة الزراعية ومحاولة ربطها بالتحولات العامة التي عرفها الاقتصاد والمجتمع والسياسة والثقافة بالغرب الإسلامي، وهو ما أفرز جدلا نظريا تداخل فيه البعد العلمي بالإيديولوجي، وعكس تفاوت القراءات واختلاف الرؤى وتناقضها، مما يزيد من صعوبة الباحث المهتم بالتراث الفلاحي خلال العصر الوسيط؛ إذ يعد ذلك التناقض إشكالا منهجيا يضاف إلى الصعوبات المعرفية التي تطرحها المؤلفات الزراعية الأندلسية نفسها.

وهكذا يمكن تصنيف الدراسات المهمة بالموضوع إلى اتجاهين محوريين، يعتبران في نظرنا الأكثر متابعة للتطور التاريخي لعلم الفلاحة بالأندلس. أما الاتجاه الأول، فيشدد على أهمية القرن 4هـ / 10م المقترن بالخلافة الأموية بقرطبة. وأما الثاني، فيركز على فترة ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ / 11م.

- الاتجاه الأول: استفاد علم الفلاحة والنبات، حسب هذا الاتجاه، من "السياسة العلمية" للخلفاء الأمويين التي أفضت إلى طفرة فكرية في العلوم الطبيعية. ويستند الباحثون من الاتجاه الأول في آرائهم إلى جملة من القرائن التاريخية؛ منها شغف السلاطين بتهيئة الحدائق لإجراء التجارب الزراعية، واستيراد البذور والنباتات من مختلف البلدان لأغراض فلاحية وصيدلية، مما أسهم في ميلاد تقويم فلاحي يشكل النواة الأولى لعلوم الزراعة والتوقيت والفلك بالأندلس؛ ويقصد به "تقويم قرطبة"

* أستاذ باحث، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، مكناس.

لُعرب بن سعيد القرطبي (ت. 370هـ / 981م) والأسقف المستعرب ربيع بن زيد (من أهل القرن 4هـ / 10م)، الذي يمزج بين العديد من التقاليد الفلاحية والفلكية القديمة العربية والهلينستية والمستعربة. يضاف إليه رسائل الزهراوي وابن سمجون (عاش في حدود 390هـ / 1000م) وابن الجواد في الفلاحة، وهو ما يعني، حسب الاتجاه ذاته، تراجع الفكر والممارسة الزراعيين الشعبيين اللذين لا يخلوان من اعتقاد سحري وتنجيمي لصالح علم الفلاحة والنبات العلميين، اللذين استفادا من "كتاب الحشائش" لديسقوريدس اليوناني الذي دخل إلى الأندلس خلال هذه المرحلة؛ إذ قادت ترجمته النقدية تحت إشراف لجنة علمية إلى تطور الفكر الزراعي. كما أن وجود الراهب نيقولا بالأندلس ومعرفته باليونانية، جعل علماء الفلاحة يستفيدون من تكوين علمي في مجال النباتات، عملوا على تلقينه لتلامذتهم الذين شكلوا القاعدة الصلبة "لثورة الفلاحة" للقرن 5هـ / 11م.

ومن ثمة فإن المؤشرات التاريخية لعلم الفلاحة، وفق ما اهتدى إليه هذا الاتجاه، تدل على أن النهضة الحقيقية قد بدأت خلال عصر الخلافة الأموية، بفعل المنجزات الضخمة التي همّت البنَى والتقنيات ونظام الري والاستغلال الزراعي. وهي عوامل فسحت المجال للتأليف ليس فقط في علم الفلاحة والنبات، وإنما في الأنواء والأزمنة والتقويم، والذي بلغ مداه خلال مرحلة حُكم الخليفة الأموي الحُكم المستنصر (350-366هـ / 961-977م). وهو ما يكشف عنه حجم المصنفات التي تعرضت للضياع بفعل ملاحقة المنصور بن أبي عامر للعلوم الطبيعية المرتبطة بالفلسفة، والتي جعلت النشاط الزراعي في فترة حكم ملوك الطوائف خلال القرن 5هـ / 11م يتسم بطابع نخبوي وأرستقراطي، بفعل اقتصره على الحداثق السلطانية، وارتكازه على نزعة جمالية غير أبهة بعامّة الفلاحين، وذلك تماشيا مع حياة الترف التي ميزت قصور أولئك الملوك.

وعليه، وتبعاً لهذا الاتجاه، فإن الخطأ في التقويم هو الذي جعل بعض الدراسات تعتبر القرن 5هـ / 11م عصر التأليف الفلاحي والنباتي، بفعل القصور المنهجي

غير المراعي للأسس البنيوية والحضارية التي تعرضت للاختلال نتيجة الفُرقة السياسية وسياسة اللامركزية الإقليمية التي طبعت الأندلس بعد سقوط نظام الخلافة بقرطبة¹.

- الاتجاه الثاني: يعتبر أقطابه القرن 5هـ / 11م "القرن الذهبي" للعلوم الإنسانية، وأن الأزمة السياسية للحكم الأموي بقرطبة لم تفض إلى أي "أزمة ثقافية"، بل إن القرن المذكور شهد في نظرهم عملية تشريق الثقافة، وبلورة "الثورة الفلاحية" بالأندلس، التي تحققت بفعل التنظيم اللامركزي للمجال الذي أحدث توازنا اقتصاديا وسياسيا امتدت آثاره إلى الفكر والممارسة الزراعيين؛ إذ استفاد علم الفلاحة من وجود ملوك شغوفين بجلب النباتات لزراعتها في حدائقهم ومنتزهاتهم، ومهندسين زراعيين مؤهلين، ومشرعين عملوا على تقنين القطاع، وفلاحين منكبين على التوفيق بين النظرية والتجريب.

وقد توازت العوامل الداخلية هذه مع المؤثرات الحضارية الخارجية، والمتمثلة في اتصال الأندلس بالشرق الإسلامي، الذي جلبت منه البذور لأقلمتها محليا، وهو ما ولّد فلاحه ذات خبرة عقلانية وهوية متوسطة، يفسرها ظهور أهم المصنفات الزراعية خلال هذا القرن.

وتبدو مضاهاة القرن 5هـ / 11م للقرن 4هـ / 10م، حسب هذا الاتجاه، في كونه عرف تصنيف مؤلف في الأنواء لعبد الله بن عاصم الغريال (من أهل القرن 5هـ / 11م)، الذي تميز عن "تقويم قرطبة" بغلبة الثقافة العربية بشكل يذكر بـ"كتاب الأنواء" لابن قتيبة الدينوري (ت. 276هـ / 889م)، عكس مؤلف عريب بن سعيد المذكور الذي مزج بين عناصر ثقافية مختلفة.

وقد أفضت معطيات هذا القرن إلى تراجع التأثيرات المسيحية لحساب الفكر العربي الإسلامي، الذي تعزز بميلاد المدارس التي استمد منها علم الفلاحة والنبات قوته المعرفية والمنهجية؛ إذ لم تعد الحاجة ملحة للرحلة إلى المشرق، ما دام أن تطور العلوم

¹ - أحمد الطاهري، عامة إشبيلية في عصر بني عباد، بحث لنيل دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة مولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1995م، (مرقونة)، ص. 178، 179، 186، 190، 191. خوان فيرنه وخوليو سامسو، «تطورات العلم العربي في الأندلس»، ترجمة، شكر الله الشالوحي ونقولا فارس، ضمن الكتاب الجماعي، موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف، رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، ص. 362-365.

محليا مكن من تحصيل ثقافة علمية رصينة، وهو ما يبدو جليا من كتاب "طبقات الأمم" لصاعد الأندلسي (ت. 462هـ / 1069م)، الذي يمكن اعتباره سجلا للتراكم المعرفي الذي حصل بالأندلس إلى بداية النصف الثاني من القرن 5هـ / 11م، والذي يضم من القرائن ما يكفي لبناء "شجرة النسب العلمي" لمدرستي مسلمة المجرطي (ت. 398هـ / 1008م) وأبي القاسم الزهراوي (ت. 557هـ / 1162م)، والتي ستمكن علوم الفلك والفلاحة والنبات والطب والصيدلة من التطور خلال هذا القرن، الذي تعدت نتائجه الأندلس إلى المشرق الإسلامي، كما يبدو من اعتماد سلطان اليمن الرسولي خلال القرن 8هـ / 14م لكتاب ابن بصال "القصد والبيان".

كما أن التقنيات الفلاحية في هذا القرن ستستفيد من تطور "علم الحيل" (الميكانيكا) ممثلا في كتاب "الأسرار في نتائج الأفكار" لابن خلف المرادي في صناعة الساعات المائية، والذي يعد إنجازا علميا وتقنيا استعان فيه بمادة الزئبق، متجاوزا في ذلك ما خلفه عباس بن فرناس والزرقالي.

علاوة على ما ذكر، فإن النتائج الإيجابية لعلم الفلاحة والنبات همت كذلك الطب والصيدلة، وهو ما يجسده كتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات" لأبي الخير الإشبيلي (ت. 498-499هـ / 1105م)، المتميز بنظامه التصنيفي الأكثر تطورا مقارنة مع النظم السالفة بما فيها النظام الذي وضعه أرسطو وثيوفراست اليونانيين للتمييز بين أنواع الأعشاب، والذي مكن الصيادلة من تحويل الحشائش إلى عقاقير وأدوية مفردة ومركبة.

لقد دفعت هذه الدلائل أصحاب الاتجاه الثاني إلى القول بحدوث "ثورة فلاحية" متحررة من قيود المركزية السياسية لنظام الخلافة الذي لم يكن، حسب رأيهم، يراعي الخصوصيات الإقليمية والعرقية، في مقابل الطائفية المجالية والإدارية التي عرفتھا الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف والتي كانت هي الدافع الأساس وراء تثوير البنى والهيكل الطبيعية والتقنية والبشرية والتنظيمية للنشاط الفلاحي والنباتي بالأندلس².

² - فيرنه وسامسو، «تطورات العلم»، ص. 362، 374، 375، 386. خوان فيرنه، «العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس»، ترجمة، أكرم ذا النون، ضمن الكتاب الجماعي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، تشرين الثاني / نونبر 1999م، ص. 1301، 1302، 1304. دونالد هيل، «الهندسة المدنية والميكانيكية»، ترجمة، نزيه عبد القادر المرعبي، منشور ضمن الكتاب الجماعي، موسوعة تاريخ العلوم العربية، إشراف، رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1997م، ص. 1008.

نحسب أن الاتجاهين بما يتسمان به من رصانة منهجية وعمق في التحليل واستقامة في التصور، يتيحان للباحث فرصة لإغناء النقاش حول إشكالية تطور العلوم الطبيعية بالأندلس بما في ذلك علم الفلاحة والنبات باعتبارها من القضايا الملغزة.

فتركيز المستشرقين، الذين ينتمون إلى الاتجاهين معا، على التنظير التأملي أكثر من الاستقصاء والبحث التوثيقي الدقيق لرصد معالم التطور التاريخي للبنية الثقافية بالأندلس، جعل أبحاثهم تتسم بالتعسف في الأحكام. إضافة إلى أن الاتجاهين معا اتخذوا من القرون مدخلا لقراءة التاريخ الثقافي؛ علما أن هذه الأخيرة، باعتبارها وعاء زمنيا قصيرا، لا يمكنها استيعاب العطاءات الحضارية التي تستلزم توظيف الزمن الطويل، الذي يعد المقياس المنهجي المناسب لتقويم البنى الفكرية ذات الزمن الطويل، كما هو الحال بالنسبة لعلم الفلاحة والنبات اللذين تجاوزت صحتهم بالأندلس القرنين 4 و5هـ/ 10 و11م. ومن ثمة فإن اعتماد القرون معيارا للوقوف على التحولات الحضارية يكون قد أسقط الاتجاهين في تقليد تاريخي أوروبي اعتاد أن يتخذ من التأريخ بالقرون وسيلة منهجية لتأكيد الاستمرارية في تاريخ أوروبا من العصر اليوناني إلى المرحلة المعاصرة وإقصاء الفترة الإسلامية بالأندلس من جهة، والترويج لمثل مقولة "العصور المظلمة"، ونعت التجربتين المرابطية والموحدية بالجمود والانحطاط على خلفية العقلية الاستشراقية التي سادت أوروبا خلال القرن 19 والمبررة لاستعمار المغرب من جهة أخرى.

كما أن تركيز أحد الاتجاهين على الوحدة المركزية زمن الخلافة الأموية بقرطبة (القرن 4هـ/ 10م) والآخر على اللامركزية السياسية لفترة ملوك الطوائف (القرن 5هـ/ 11م)، جعلهما يعطيان للعامل السياسي الدور الحاسم في توجيه المسار الحضاري للأندلس، وأوقعهما، تبعا لذلك، في رؤية تفكيكية باعتمادهما "المؤسسات" و"النظم" عوض التركيز على "البنى" في تتبع تاريخ العلوم الطبيعية بالأندلس، وهو ما حول النهضة الفلاحية والنباتية، حسب الاتجاهين، إلى حدث ظرفي ومنحصر في مدة زمنية وسياسية لم تتعد القرن الواحد.

ومرد ذلك في نظرنا إلى الاهتمامات المعاصرة للباحثين من كلا الاتجاهين، والتي وجهت قراءتهم للنصوص الوسيطية في إطار السعي إلى البحث عن "الأصالة" و"الجدة"، وإبراز الوجه المشرق للعقل الفلاحي بالأندلس؛ فكانت النتيجة أن الجهود المبذولة من قبل أولئك الدارسين، وخاصة العرب منهم، أثرت الحماس في مواجهة الآخر على حساب العمل التوثيقي والرؤية الموضوعية في التأريخ للازدهار الفلاحي بالأندلس.

كما أننا وإن اتفقنا مع أحد ذينك الرأيين حول وجود مرحلتين متعاقبتين في تاريخ الفلاحة والنبات بالأندلس، فإننا نختلف معه في أن عصر الطوائف هو الحد الفاصل بين مرحلتين التفوق والتراجع؛ بل نحسب أنه إذا جاز الحديث عن الاختلال الحضاري وانعكاساته على علم الفلاحة، فإنه يمكن التأريخ له فيما بعد هزيمة العقاب (609هـ / 1212م)، باعتبارها هزيمة عسكرية واقتصادية ونفسية وبداية خراب وتبدل حضاريين بالأندلس، وأولى عتبات انقلاب موازين القوى بالجنح الغربي للحوض المتوسطي، في أفق انتقال الثقل الحضاري من هذا الأخير إلى المحيط الأطلسي³.

وتبعاً لذلك، نقسم تاريخ الفكر الفلاحي بالأندلس إلى مرحلتين:

أولاً- المرحلة الأولى: صحوة علم الفلاحة والنبات

تمتد من بداية تكون الشخصية الحضارية الإسلامية بالأندلس إلى هزيمة الموحدين في معركة العقاب التي تؤرخ لبداية القرن 7هـ / 13م. وقد مر علم الفلاحة خلال هذه المرحلة بثلاث فترات:

1- الفترة الأولى: تشمل عهد الولاة والإمارة والخلافة الأموية، تأثرت خلالها الفلاحة الأندلسية بحركة التاريخ الإسلامي؛ حيث تركّز النشاط الحضاري بالمشرق، وهو ما يجعلنا نساير الباحثين الذين يتحدثون عن «حقبة شرقية في التاريخ»⁴، تمتد إلى بداية القرن 5هـ / 11م، همت تأثيراتها النشاط الفلاحي بالأندلس.

³ - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، د. ت.، ص. 36.

⁴ - ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة، ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.، ص. 36، 51. مورييس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة، عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، د. ت.، ص. 13.

كما أن التطور الذي وصلته المعرفة الزراعية خلال هذه الفترة يعد تنويعا للجهود التي بذلت زمن الفتوحات الإسلامية التي لم تكن غزوا عسكريا، وإنما فتحا حضاريا تماشى فيه المعارك مع الرغبة من قبل الفاتحين العرب في خدمة الأرض؛ إذ إن الجنود المسلمين، وهم يحاصرون المدن الأندلسية، «بنوا عليها المساكن وغرسوا الغروس، وحرثوا لمعاشهم»⁵. وبالمثل تواتر عن عبد الرحمن الداخل (138-172هـ/ 755-788 م) أنه لما لجأ إلى الأندلس سارع إلى إقامة "الرصافة" بقرطبة وتكثيف مغروساتها على غرار رصافة دمشق⁶. وقد جراه الشاميون الذين رافقوه في ذلك؛ ومنهم سفر بن عبيد الأنصاري، الذي «كانت قريته بقرب قرطبة على طريق قرطبة، وتعرف ببنييلة»؛ فغرس فيها صنفا من الرمان الشامي، الذي عرف في الأندلس فيما بعد بـ"الرمان السفري" نسبة إليه⁷.

وبذلك لم تستطع الفلاحة الأندلسية خلال هذه الفترة تجاوز التأثيرات القديمة بمظاهرها الرومانية واليونانية التي تسربت إلى الأندلس عبر الثقافة العربية المشرقية، مضافا إليها الفكر الزراعي القوطي المحلي، بدليل الترجمة النقدية والتصحيحية لـ"كتاب الحشائش" لديسقوريدس اليوناني.

ومما يمكن الاستدلال به عن أهمية هذه الفترة، منهج ابن عاصم الغريال الأندلسي (ت. 403هـ/ 1012م) في تأليف كتاب "الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم"؛ حيث جاء في مقدمة المصنف: «حررت ذلك برؤية الكواكب تحريرا مقاربا، وكتبت باختصار كل ما تقتضيه فيه، وضممته إليه، مما شاكل هذا الفن، وضارع هذا العلم، وكثر الواضعون فيه، وطولوا على الناظرين فيه، ليكون هذا

⁵ - ابن عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس (قطعة منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار)، نشر، إ. ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1973م، ص. 195.

6- Julio SAMSÓ, «Ibn Hisam al-Lajmi y el primer jardin botanico en al-Andalus», *Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid*, Vol. 21, 1981-1982, pp. 135-141.

ومن تأثير الرصافة في العمارة الإسلامي بقرطبة أن أحد أرباضها سمي بـ"رض الرصافة". أبو القاسم بن بشكوال، الصلة في تاريخ أمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، الجزء الثاني، تحقيق، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/ 1989م، ص. 400.

⁷ - محمد بن عسكر وأبوبكر بن خميس، أعلام مالقة، تقديم وتخريج وتعليق، عبد الله المرباط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ودار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م، ص. 350، 351. المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المجلد الأول، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1428هـ/ 1988م، ص. 467، 468.

الكتاب قائما بنفسه، مستغنيا عن غيره، مستدركا لما أغفل، جامعا لما أهمل، فإنه وإن كان ألف في هذا الفن أئمة من أهل العلم والرزانة، وطائفة من أهل السنة والجماعة، وحازوا قدوتنا فيما جمعناه، وعلتنا فيما علّقناه، فإن فضل هذا الكتاب على كتبهم السالفة، وأوضاعهم النافعة؛ بجمع ما فرقوه، وتقريب ما بعده، واختصار ما طوّلوه، واستقصاء ما أهملوه»⁸.

ومما يزيد من اقتناعنا بأهمية هذه المرحلة في تاريخ الفلاحة بالأندلس، أن الفكر الزراعي لم يتأثر بتعقب المنصور بن أبي عامر للفلسفة، التي هي أساس النهضة العلمية، خاصة أن غاية الخليفة المذكور من إحراق كتب الفلسفة وعلوم الأوائل التي كانت مودعة بخزانة الحكم المستنصر، تدرج في إطار خطة استراتيجية تهدف تثبيت الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية القائمة، والحيولة دون إثارة الرأي العام الذي دأب على اتهام الفلاسفة بالفسق والزندقة؛ فـ«كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظا عظيما عند خواصهم، ولا يتظاهرون بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقربا للعامة، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم، (...) وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن»⁹.

إن ما تعرضت له الفلسفة والعلوم الطبيعية الملحقه بها من تضيق في فترة الحجابة العامرية هو مجرد مناورة ثقافية ذات خلفية سياسية تسعى إلى تدعيم الشرعية، دليلنا في ذلك شهادة أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة، التي تؤكد عدم قدرة الدولة على اجتثاث جذور الفلسفة؛ إذ «لم يزل أولوا النباهة من ذلك يكتمون لما يعرفونه منها إلى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس وافترق الملك، (...) فلم

⁸ - عبد الله بن عاصم، الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم، تحقيق، نوري حمودي القيسي ونايف الدليمي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1416هـ/ 1996م، ص. 20.

⁹ - المقرئ، نفح الطيب، م، 1، ص. 221. ويعد سعيد بن فتحون بن مكرم التجيبي ممن لحقه بطش ابن أبي عامر لاشتغاله بالفلسفة؛ فقد «كان ذا حظ من علوم القدماء الفلاسفة وامتنح من قبل المنصور أبي عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محنة أدت إلى سجنه مدة، فبعد ما سرح فصل إلى صقلية فأوطنها إلى أن توفي بها». ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الرابع، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ص. 41.

تزل الرغبة ترتفع من حينئذ في طلب العلم القديم شيئا فشيئا وقواعد الطوائف تتبصر قليلا قليلا؛ (...) فالحال (...) أفضل مما كانت بالأندلس في إباحة تلك العلوم والإعراض عن تحجير طلبها»¹⁰. وهو ما يفسر توسع الحركة العلمية وازدهارها خلال هذه الفترة كما يعكسها كتاب "طبقات الأمم" المذكور، ويؤكد الصلة مرة أخرى بين علم الفلاحة والفلسفة من جهة، وانفلات العلوم الطبيعية من "محاولة الاغتيال الثقافي" من قبل المنصور بن أبي عامر من جهة أخرى.

2- الفترة الثانية: ترتبط بعصر الطوائف، وقد اتسمت ببداية استقلال الشخصية الفلاحية والنباتية بالأندلس دون الوصول إلى حد الانفصال الكلي عن التأثير العربي-الإسلامي، ما دام أن القرن 5هـ / 11م في معظمه هو زمن تعريب الثقافة الإسلامية، وإن لم يمنع ذلك علم الفلاحة الأندلسية من بلوغ مرحلة التخصص العلمي، تأليفا وممارسة، مع ابن بصال (ت. 499هـ / 1105م) الذي لم يهتم في كتابه إلا بالجوانب الزراعية، التي جعلت علم الفلاحة مستقلا عن علم الطب والصيدلة من جهة، وقائما على تجارب ميدانية خاصة من جهة ثانية، خاصة أن ابن بصال لم يستند إلى أي مصدر مكتوب، ما دام أنه اشتهر في الأوساط الفلاحية الأندلسية بـ«الشيخ الفلاح»، و«الماهر في الفلاحة»، «الذي شهدت له التجربة بفضل»¹¹.

وعلى غرار ابن بصال، يمثل ابن حجاج الإشبيلي (النصف الثاني من القرن 5هـ / 11م)، الذي وصف بـ«بحر علوم وسابق ميدان منثور ومنظوم»¹²، قرينة أخرى على غنى هذه الفترة، حيث وضع كتاب "المقنع في علم الفلاحة" عام 466هـ / 1074م.

3- الفترة الثالثة: تتمثل في قوة التأثير المغربي في علم الفلاحة بحكم التحول السياسي الذي حصل في تاريخ الأندلس، حيث أصبحت هذه الأخيرة ولاية تابعة لمراكش على عصري المرابطين والموحدين، وهو ما سيخفف من حدة التأثيرات المشرقية.

¹⁰ - صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، القاهرة، د. ت.، ص. 103، 104.

¹¹ - أبو الخير الإشبيلي، عمدة الطبيب في معرفة النبات، القسم الأول، تحقيق وتقديم، محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1990م، ص. 462. أبو زكرياء بن العوام، كتاب الفلاحة، الجزء الثاني، دراسة وتعليق، غارسيا سانثيز وإستفان فرنانديز ميخو، مدريد، 1988م، ص. 743، 813، 835، 836. المقرئ، نفح الطيب، م، ص. 151.

¹² - علي بن سعيد، المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ / 1997م، ص. 185.

يضاف إلى ذلك أن ارتباط علم الفلاحة بالفلسفة، واعتبار القرن 6هـ/ 12م عصر العلوم الفلسفية، مكن الفكر الفلاحي من بلوغ مرحلة أرقى في تاريخ صحوته، كما تجسدها المؤلفات التي تعود إلى هذه الفترة؛ مثل مصنفات ابن العوام والغافقي وابن الرومية (ت. 637هـ/ 1239م) وابن البيطار، الذين تمثل مؤلفاتهم الحلقة الأخيرة في تاريخ علم الفلاحة والنبات بالأندلس؛ إذ جمعت التجارب الفلاحية والعشبية السالفة، مما دفع بعض الباحثين إلى اعتبار هذه الفترة بمثابة عصر ذهبي لتلك العلوم، مفندين غيرهم ممن سقطوا في فخ الرؤية الاستشراقية التقليدية المتعصبة والمتأثرة بأبحاث المستشرق الهولندي دوزي (DOZY) وموافقه الحانقة على الوجوديين المرابطين والموحدي بالأندلس، واعتباره الوحدة السياسية بين المغرب والأندلس مظهرا للانحطاط السياسي والجمود العلمي¹³.

ويثبت الواقع التاريخي عكس ما تدعيه هذه الأطروحة الاستشراقية؛ فالفترة تمثل ذروة العطاء الثقافي الذي شمل مختلف الميادين المعرفية كالفلسفة والفلك والفلاحة والنبات والطب والصيدلة؛ إذ تواصلت الجهود لتحقيق قيمة علمية مضافة، كما هو الحال مع ابن بكلاش (ت. بعد 503هـ/ 1110م) الذي ألف "المستعيني في الأدوية المفردة"، وابن باجة (ت. 533هـ/ 1138م) صاحب "التجربتين" الذي أتم به "كتاب النبات" لابن وافد (ت. 460هـ/ 1068م)، وابن ميمون الذي أبان عن تمكّن دقيق في المصطلحات النباتية في كتابه "شرح أسماء الأدوية". دون إغفال أعمال ابن البيطار الذي خصص مؤلفه "الإبانة والإعلام بما في كتاب المنهاج من الخل والأوهام" متداركا به أخطاء "منهاج البيان" لابن جزلة (ت. 493هـ/ 1100م)¹⁴. أما كتابه في النبات، المسمى بـ"الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، فقد أحاط فيه بما بلغه علم الصيدلة من تطور حتى القرن 7هـ/ 13م، معتمدا في تصنيفه على صحة النقل والتجربة، مما أفاده في الوقوف على أخطاء الصيادلة والعشابين. كما يكشف الكتاب عن غنى تجربة ابن البيطار؛ إذ يضم ما يناهز 2353 مادة معجمية بنسبة 60,43%.

¹³ - لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص. 119. جولد شتاين، المقدمات التاريخية للعلم الحديث: من الإغريق القدماء إلى عصر النهضة، ترجمة، أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 296، رجب 1424هـ/ سبتمبر 2003م، ص. 119. فيرنيه، «العلوم الفيزيائية»، ص. 386.

¹⁴ - ضياء الدين بن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، الجزء الثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ/ 1992م، ص. 301، 310.

منها 1422 مادة طبية خالصة، و931 مادة تفسيرية ونسبتها 39,57%¹⁵؛ وهو ما يجعلنا نصنف صاحبه ضمن أكبر العشابين المسلمين؛ فهو «أوحد زمانه في معرفة النباتات، (...) انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه»¹⁶.

ويبقى "كتاب الفلاحة" لابن العوام أهم حجة على استمرار النهضة الزراعية والعشبية الأندلسية خلال فترة ما قبل هزيمة العقاب، والتي تجعل القرن 6هـ/ 12م لا يقل اعتباراً عن سابقه في تطور العلوم الطبيعية؛ فالكتاب بمثابة "موسوعة لتاريخ الفلاحة"، مَحَص فيه المؤلف التجارب الزراعية القديمة والعربية بمنهج يجمع بين المعارف النظرية والممارسة التجريبية بالحوض المائي للوادي الكبير وما تميز به من غطاء نباتي متنوع، خاصة بمنطقة "الشرف" التي عُرِفَت بسيادة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة كالزيتون¹⁷. وهو ما يجعلنا نخالف أحد الباحثين¹⁸ الذي شكك في التجربة الزراعية الميدانية لابن العوام؛ ففي نظره أنه «ليس هناك ما يدل على أنه قام مثل سلفه ابن بصال، بتجارب علمية وعملية في الغراسة والري وتوليد النباتات ومعالجة آفاتهما»؛ حجتنا في ذلك ما ذكره ابن العوام نفسه في "كتاب الفلاحة" عن بعض تجاربه النباتية بجبل الشرف المذكور؛ فقد قال عن الأرز: «زرعت حبه الصحاح في الشرف، مقشرة سالمة، وغير مقشرة أيضاً دون تشنيج، وتعاهدته بالسقي بالماء في كل يوم، فنبئت المقشرة والتي لم تقشر أيضاً، ونقلت نقله وغرسته، (...) وكررت زراعته مرات. والذي أرى أن يزرع للتثقيل في شهر دجنبر، وربما صلح أن يزرع قبل ذلك، يدرك الأمطار منه شيء»¹⁹. كما قال عن زراعة القثا: «قد عملته في الشرف في

¹⁵ - إبراهيم بن مراد، المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م، ص. 179.

¹⁶ - المقرئ، نفح الطيب، م3، ص. 368.

¹⁷ - ابن العوام، كتاب الفلاحة، ج2، ص. 221، 223. محمد بن بطوطة اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الجزء الثاني، مطبعة التقدم، القاهرة، 1322هـ. ص. 187، 188. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة، لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، المعهد مغيل أسين، مدريد، 1983م، ص. 52، 53.

¹⁸ - محمد عبد الله عنان، أندلسيات، سلسلة كتاب العربي، الكويت، الكتاب 20، يوليو 1988م، ص. 191.

¹⁹ - ابن العوام، كتاب الفلاحة، ج2، ص. 59.

مرج، فجاء حسنا»²⁰. أما عن زراعة الكمون فقد قال: «زرعت الكمون في الشرف على السقي، فجاء صالحا إلا ما أصاب الظل منه، فإنه يفسد»²¹.

ومن الطرائف المتعلقة بالنزعة النقدية لدى علماء الفلاحة والنبات في هذه الفترة أن الغافقي خطأ كل العلماء الذين سبقوه؛ إذ ما من أحد منهم «إلا وقد غلط الغلط الفاحش، من الرازي الذي كان أولهم إلى زماننا هذا، ومع الغلط والخطأ فما استوفى واحد منهم غرضه ولا أكمله في كتابه»، واصفا إياهم بالجهل وقلة التبصر²²، إلا أنه وقع فيما انتقد فيه غيره، وجعل من أتوا بعده يحصون هنأته، ومنهم ابن الرومية الذي وضع كتاب "التنبيه على أخطاء الغافقي"²³.

علاوة على العوامل المذكورة التي أسهمت في استمرار النهضة الفلاحية إلى ما بعد القرنين 4 و5هـ/ 10 و11م، فإن البرامج التعليمية التي نهجها المرابطون والموحدون والمرينيون بالمغرب والأندلس شكلت هي الأخرى دعامة أساس للتكوين الفلاحي، بدليل ما تضمنته المشيخات والفهارس من معلومات عن طبيعة المقررات الدراسية والمكانة التي تحتلها ضمنها كتب الأنواء والنبات، ولنا فيما ذكره ابن خير الإشبيلي (ت. 575هـ/ 1179م) في "فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف" نموذجاً لذلك؛ إذ من جملة ما اعتمده في تعلمه مؤلفات في الأنواء، وكتب الأشربة والشجر والنبات والسحاب والرعد والبرق²⁴. لذلك نجد الحسن الوزان²⁵ ينوه باهتمام المغاربة والأندلسيين تأليفا وتدريسا بعلم الأنواء مقارنة بالمسيحيين.

20- نفسه، ص. 222

21- نفسه، ص. 254.

22- أبو جعفر الغافقي، كتاب الأدوية المفردة، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم: 155 ق، ص. 1، 2، 3، 119.

23- لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول، تحقيق، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1393هـ/ 1973م، ص. 212.

24- ابن خير الإشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، تحقيق، فرانشة قداره زيد بن خويلد ربارة طرغوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1399هـ/ 1979م، ص. 261، 262، 282، 315، 337، 371، 376، 377، 382، 420، 422.

25- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1983م، ص. 79، 80.

أما على أرض الواقع فقد أولى بعض السلاطين عناية خاصة بشؤون الفلحة، من قبيل الاهتمام بمطالع الكواكب²⁶، والزراعة وتربية الماشية، كما هو الحال بالنسبة للخليفة الموحدي يوسف المنتصر بالله (610-620هـ / 1213-1223م) الذي «كان مولعا بالبقر والخيول، كان يؤقي بالبقر من الأندلس فيستنسخها في رياضه الكبير من حضرة مراکش»²⁷.

ثانيا- المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد معركة العقاب (609هـ / 1212م)

تميزت بـ"التذبذب الحضاري" بفعل الصدمة التي خلفتها الهزيمة العسكرية للموحدين في الواقعة المذكورة بالأندلس، والتي انعكست على كل الميادين، وأفضت إلى «خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها»²⁸. والأمر نفسه ببلاد المغرب ممثلا في الانقلاب السياسي الذي حصل؛ إذ ساعد الخراب البشري والعمرائي والاقتصادي وأزمة الضمير الجماعي المغربي الذي خلفته الهزيمة المذكورة على تغيير الخريطة السياسية بالغرب الإسلامي، ووصول المرينيين إلى الحكم بالمغرب الأقصى، لذلك اعتبرت بمثابة «المصيبة العظمى والحادث الشنيع»²⁹، الذي آذن بتحول جذري، وهو الوضع الذي استفادت منه أوروبا بفعل نهضتها على حساب المسلمين في أفق توسيع الإشعاع الحضاري وانتقال الثقل من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي.

²⁶ - ابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، ص. 351.

²⁷ - ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص. 243.

²⁸ - أحمد بن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (القسم الموحدي)، تحقيق، محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيير ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1406هـ / 1985م، ص. 263. لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانية الإسلامية)، تحقيق وتعليق، إلفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، 1956م، ص. 270.

²⁹ - الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص. 191. وقد عثر الشاعر أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي عن البعد النفسي لهزيمة العقاب بقوله:

وقائلة أراك تطيّل فككرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غندا سببا لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب
المقري، نفح الطيب، م، 4، ص. 464.

لقد كانت العلوم الطبيعية أشد تأثراً بهذه التحولات؛ إذ من البديهي أن تتراجع المعارف الفلاحية والنباتية، وإن كنا لا نعدم وجود بعض المعالم الإيجابية التي نغند من خلالها الزعم القائل بأن العصر النصري كان ذيلاً على تاريخ الأندلس؛ لأن العبرة في هذه المرحلة، التي تشكل أولى عتبات تاريخ فشل المسلمين، لم تعد بالكم المصدري، بل أضحى ينظر إلى المؤلفات الزراعية والنباتية من خلال قدرتها على التأريخ للصحة الفلاحية التي عرفتتها الأندلس في العصور السابقة.

ونظن أن هذا ما يميز كتابات ابن العوام وابن البيطار وابن ليون؛ فكأن هذا الأخير شعر بتراجع التأليف في ميدان الفلاحة، فعمد إلى توسيع نشاط تلخيصاته التي عُرف بها ليشمل المؤلفات الزراعية، نظماً ونثراً، كما يتجلى ذلك في "اختصارات من كتاب الفلاحة" الذي يعود نصه الأصلي إلى الطغزي، و"إبداء الملاحه وإنهاء الرجاجة في أصول صناعة الفلاحة" الذي هو أرجوزة تعيد صياغة المعارف الزراعية السابقة في قالب شعري³⁰. أما ابن البيطار، فقد بذل جهوداً نظرية وعملية جعلت المرحلة المربنية والنصرية لا تفتقر إلى مصنفات في علم الفلاحة والنبات، وخاصة كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، الذي «لم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجَل ولا أجود منه»³¹. مضافاً إليه مصنفاًته الأخرى التي لا تقل أهمية من حيث مضمونها العلمي، مؤكدة بذلك استمرارية الطابعين النقدي والتصحيحي للفكر الفلاحي والنباتي بالأندلس خلال هذه المرحلة، نذكر منها كتاب "تفسير لكتاب ديسقوريدس" و"المغني في الأدوية المفردة".

إن ما حملنا على تقسيم تاريخ علم الفلاحة والنبات إلى مرحلتين هو الرغبة في تجاوز الأهمية التي أعطيت للعامل السياسي من قبل بعض الدراسات المعاصرة في توجيه الفعل الثقافي، وإن كنا لا ننكر دور السلطة والإرادة السياسيتين في إنجاح بعض المشاريع الثقافية في تاريخ الإسلام³².

³⁰ - ابن ليون التجيبي، إبداء الملاحه وإنهاء الرجاجة في أصول صناعة الفلاحة، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم: 11872.

³¹ - موفق بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، الجزء الثالث، القسم الأول، دار الفكر، بيروت، 1376هـ/ 1956م، ص. 222.

³² - نذكر على سبيل المثال "بيت الحكمة" ببغداد على عصر العباسيين، والميول العلمية للخليفتين الأمويين عبد الرحمن الناصر وخلفه الحكم المستنصر (350-366هـ/ 961-977م) بقرطبة.

وتكمن غايتنا بالأساس في إقامة تلازم بين تطور العلوم والتحولات الاقتصادية والاجتماعية؛ لأن معالم الفكر لا تنتظم إلا في مجتمع بلغت فيه الحضارة مستوى يمكن من تحقيق «الضروري من المعاش وتحصيل الأقوات» للناس، حتى ينكبوا على الاشتغال بالمعرفة، ما دام أن هذه الأخيرة هي من «عوائد العمران»، و«أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمده»، و«أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة»³³.

لقد ازدهرت الزراعة وتطورت معارفها وتدققت مناهجها بالأندلس بسبب «رسوخ الحضارة برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جرا، فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر، (...) فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه»³⁴، خاصة أن من خصائص الأندلس «تبحر العمران، (...) وإحكام التمدن والاعتماد»³⁵، وأن مدنها متمكنة الحضارة، جليلة القدر؛ فكان طبيعيا أن تتأثر الفلاحة، فكرا وممارسة، بتطور ذلك العمران، مما جعلها تصنف ضمن أمهات الصنائع، لأنها «محصلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا، إذ لا يمكن وجوده من دون القوت، (...) [فهو] محتاج إليها في الحواضر والأمصار، (...) وضرورية (...) لما عرف من فائدتها»³⁶.

وقد ارتبطت النهضة الزراعية بالخصوص بالتطور العمراني لبعض الحواضر الأندلسية كإشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها؛ فأهل مراكش وفلاحوها استفادوا من المشروع المائي الكبير الذي أقامه المهندس عبيد الله بن يونس على عهد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين (453-500هـ / 1061-1107م)؛ فابن يونس «جاء إلى مراكش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين، (...) فقصده إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئرا مربعة كبيرة التريبع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض، ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجا إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب

³³ - ابن خلدون، المقدمة، ص. 444-447.

³⁴ - نفسه، ص. 444، 445، 446، 481.

³⁵ - ابن الخطيب، أعمال الإعلام، ص. 4، 5.

³⁶ - ابن خلدون، المقدمة، ص. 450، 546.

فيه؛ فهو جار مع الأيام لا يفتقر، وإذا نظر الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها، وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي به استخرج ذلك الماء، والسبب هو الوزن للأرض، (...) ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنان واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها»³⁷. وقبل ذلك، كان المراكشيون يستغلون مياه الآبار المجاورة، وبعدها حاول الأمير علي بن يوسف المرابطي جلب الماء إلى المدينة من «عين بينها وبين المدينة أميال ولم يستتم ذلك، فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم وبأيديهم تمموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة وصنعوا به سقايات»³⁸.

عملت هذه المشاريع السقوية على تمصير المدينة وخاصة في العصر الموحد، حيث تطور مشهدها الفلاحي واتسع؛ لذلك، صارت مراكش «مدينة طيبة التربة كأنها غطاء من حجر على حجر، عذب ماؤها قريب من قامة أو قامتين؛ وبساتينها تسقى من آبار منتفذة بعضها ببعض حتى تخرج على وجه الأرض (...) وهي كثيرة الزرع والضرع تحرثها دكالة وجنتها نفيس، وحولها من البساتين والجنان التي يسمونها البحائر لعظمها ما لا يحصى كثرة»³⁹.

أما قرطبة، فقد كانت أم المدائن الأندلسية من حيث عمرانها، مما جعل أحد الباحثين⁴⁰ يصفها ضمن الحواضر المليونية، وهو تقدير وإن كان يحمل شيئا من المبالغة إلا أنه في المقابل يعكس حجم العمران الحضري وكثافته في عاصمة الخلافة الأموية التي ناهز عدد أحيائها ثمانية وعشرين حيا. في حين اشتهرت إشبيلية «بمعظم

³⁷ - محمد الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تحقيق، هنري بريس، مكتبة معهد الدروس العليا بالجزائر، الجزائر، 1376هـ/ 1957م، ص. 43، 44.

³⁸ - نفسه، ص. 44. ومما يدل على أهمية هذه المشاريع المائية مراكش، أن المدينة كانت ذات كثافة مرتفعة تتطلب كميات كبيرة من الماء تحقق الاكتفاء للسكان؛ فحسب الحسن الوزان أن «في حياة علي بن يوسف بن تاشفين كان بها ما ينيف على مائة ألف كانون». الوزان، وصف إفريقيا، ج1، ص. 127.

³⁹ - مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1985م، ص. 208، 209.

⁴⁰ - أحمد الطاهري، عامة قرطبة في عصر الخلافة: دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، منشورات عكاظ، الرباط، 1989م، ص. 27، 28.

الامتناع، وإحداق الأشجار بها من كل جهة، (...) وفيها من ضروب التركيب والفلاحة ما تفضل به غيرها»⁴¹.

ومن جهتها لم تحض غرناطة باهتمام بني الأحمر خلال القرنين 7 و8هـ/ 13 و14م إلا لكونها «حضرة سنية، (...) كبرت عن قيل وقال، (...) وقيدت العقل بالعقل، وأمنت حال حسننها من انتقال»⁴². لذلك، انتقل سكانها، حسب بعض التقديرات المعاصرة، ما بين القرنين 4هـ/ 10 و8هـ/ 14م من مائة ألف إلى أربعمائة ألف نسمة، ومنها ما يجعله نصف مليون، وعدد بيوتها سبعين ألفا⁴³.

إلا أن الآثار الإيجابية لهذا الازدهار العمراني على علم الفلاحة والنبات سيتأثر سلبا بـ"الانقلاب الحضاري" الذي عرفه الحوض المتوسطي خلال القرنين 7 و8هـ/ 13 و14م لصالح الأوروبيين، والذي سيجعل هذه الفترة تدرج ضمن عصر التراجع والانحطاط، بسبب تظافر جملة من العوامل الداخلية والخارجية المفضية إلى الاختلال المذكور، ومن جملتها «ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف (...) المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحامها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، (...) واتنقض من عمران الأرض بانتقاض البشر، (...) فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»⁴⁴. دخلت عقبه الأندلس، على غرار الضفة الجنوبية للحوض المتوسطي، عهدا يعد، حسب جاك بيرك (Jacques BERQUE)، «من أسوأ العصور التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط»⁴⁵. فما تجليات هذا الواقع الحضاري على علم الفلاحة والنبات؟

انتهى بنا الحديث عن المقومات المعرفية والمنهجية للإبستمولوجيا الفلاحية إلى ما حققته من صحو زراعية زاوجت بين خطاب التجريب وعقلانية الممارسة

⁴¹ - ابن سعيد، المغرب، ج2، ص. 9، 10.

⁴² - لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق، محمد كمال شبانة، نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي بالمغرب، الرباط، 1397هـ/ 1977م، ص. 62.

⁴³ - Javier SIMONET, Descripcion del Reino de Granada bajo la dominacion de los Nazaritas, Granada, 1872, pp. 53-56.

⁴⁴ - ابن خلدون، المقدمة، ص. 36.

⁴⁵ - نقلا عن، محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، 1984م، ص.

والمنهج النقدي والتصحيحي الذي أفاد علماء الزراعة والعشابين المغاربة والأندلسيين في تحقيق قطيعة مع الفكر الفلاحي القائم على التنجيم والسحر لدى الحضارات القديمة، وذلك ارتباطا بالازدهار العمراني للحواضر بالأندلس، لكن الآن وقد ولجت بعد معركة العقاب مرحلة الانكماش الحضاري، فإنه من الطبيعي أن تتغير تلك المعالم وتتبدل الصورة الإيجابية؛ لـ«أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقضت منها الصنائع، (...) وذلك إذا ضعفت أحوال المصمر، أخذ في الهرم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه، وتناقص فيه الترف، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف»⁴⁶.

لقد قل التأليف الفلاحي بالأندلس بفعل تلك العوامل حتى كاد ينعدم لولا تلخيصات ابن ليون وأراجيزه، التي هي مرآة صادقة للمعالم الفكرية لهذه المرحلة، ما دام أن جهوده العلمية لم تتجاوز في معظمها اجترار مؤلفات العهود السابقة، لأنه كان مولعا باختصار الكتب، التي «يسرّت للمستعجل»، بغية «انتقاء (...) ما يحسن سوقه في المذاكرة ويحمد ذكره في المحاضرة»⁴⁷. وهو مظهر من مظاهر تراجع المعرفة العالمّة لصالح الفكر الزراعي الشعبي، والذي يعد إقحام التعابير العامة من بين تجلياته، بسبب ما مس البنية الثقافية من نكوص خلال هذه الفترة.

وإذا كانت الفلسفة هي أساس ازدهار التأليف والممارسة الفلاحيين؛ فقد وُجّهت لها في هذه المرحلة سهام الاغتيال وصدرت في حقها الفتاوى الفقهية، التي اعتبرتها «أساس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيف والزندقة»⁴⁸. لذلك، نجد الخليفة الموحي أبا يوسف يعقوب المنصور يصادر الفكر الفلسفي ومؤلفاته، عازما على «أن لا يترك شيئا من كتب المنطق والحكمة باقيا في بلاده، وأباد كثيرا منها بإحراقه بالنار، وشدد في أن لا يبقى أحد يشتغل بشيء منها، وأنه متى

⁴⁶ - ابن خلدون، المقدمة، ص. 447.

⁴⁷ - المقرئ، نفح الطيب، م 5، ص. 543، 544.

⁴⁸ - فتوى ابن الصلاح الشهرزوري (ت. 643هـ / 1246م)، أوردها محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص. 40.

المقرئ، نفح الطيب، م 7، ص. 400.

ومن مظاهر التضييق على العلوم الفلسفية في هذا العصر كذلك، أن عبد الرحمن بن محمد الفزازي (ت. 627هـ / 1229م)، وهو أحد الكُتّاب المقرئين من الأمراء الموحدين ومنهم الخليفة أبو العلاء إدريس المأمون (624-630هـ / 1232-1226م) أيام ولايته بمالقة، «كان لا يصاحب أحدا ولا يؤاخيه إلا بعد البحث، هل نظر في العلوم القديمة؟ فإن كان قد نظر فيها، لم يصاحبه، وكان ممقوتا عنده». ابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، ص. 261.

وُجد أحد ينظر في هذا العلم أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه فإنه يلحقه ضرر عظيم»⁴⁹، وهو ما تم بالفعل حيث أرغم الخليفة المذكور جملة من الفلاسفة، منهم أبو الوليد بن رشد (ت. 595هـ / 1198م)، على الإقامة الجبرية بإشبيلية، «وأظهر أنه فعل بهم ذلك بسبب ما يدعى فيهم أنهم مشغولون بالحكمة وعلوم الأوائل»، قبل التراجع عن ذلك سنة 595هـ / 1198م⁵⁰.

أما التعليم الذي كانت به تُداول المعارف بين العلماء والمهندسين الزراعيين بالأندلس، وما يرافق ذلك عادة من حذق في التلقين، فقد تأثر هو الآخر بظروف المرحلة، ولم يعد قادرا على مواصلة فتح آفاق الإبداع الفكري لدى المغاربة والأندلسيين، الذين «ذهب رسم التعليم من بينهم، وذهبت عنايتهم بالعلوم (...) [ف]العقليات (...) لا أثر لها ولا عين، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم»⁵¹.

وقد همّ هذا الانتكاس مناهج التدريس وبرامجه؛ فبعدما كانت الرحلة هي أساس اكتساب العلوم؛ لأن في «لقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم»، فقد اقتصر على التلقين في المدارس التي اعتمدت على "الاختصارات" و"البرامج" و"الأراجيز" الموضوعية للحفظ والرواية دون الدراية، وهو ما يؤشر إلى «فساد في التعليم، [لأن] فيه إخلال بالتحصيل»، خاصة أن «كثيرا من المعلمين لهذا العهد يجهلون طرق التعليم وإفادته»⁵².

وإذا كنا قد ربطنا بين الفلاحة والطب والصيدلة، فإن متانة تلك الصلة تتأكد خلال مرحلة ما بعد العقاب، إذ انعكس تراجع علم الزراعة سلبا على المعرفة الطبية؛ ف«هي لهذا العهد في المدن الإسلامية كأنها نقصت لوقوف العمران وتناقصه، [لأنها] من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة، (...) وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج»⁵³. وهو ما يفسر المنعطف الجديد في تاريخ الفشل الحضاري بالأندلس

⁴⁹ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص. 523.

⁵⁰ - نفسه، ص. 532.

⁵¹ - ابن خلدون، المقدمة، ص. 477-497.

⁵² - نفسه، ص. 588، 589، 598. لسان الدين بن الخطيب، اللوحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1400هـ / 1980م، ص. 109.

⁵³ - ابن خلدون، المقدمة، ص. 545، 546.

المقترن بـ«فساد الزمان، (...) وفساد الأحوال»، المؤثرة سلبا على علوم الفلاحة حسب اعتقاد المتصوفة والعامّة⁵⁴.

خلاصة القول إن علم الفلاحة بالأندلس يعد من العلوم الطبيعية التي عرفت تطورا معرفيا ومنهجيا، جعلها تحقق ازدهارا قائما على التجربة بفعل الممارسة الميدانية لشؤون الزراعة في الحقول والبساتين، رغم ما عرفته من تراجع في العهود الأخيرة من العصر الوسيط، متأثرة بالتحولات الحضارية للجناح الغربي من الحوض المتوسطي.

⁵⁴ - محيي الدين بن عربي، رسالة القدس، نشر، ميكيل أسين بلاثيوس، منشورات معهد الدراسات العربية بمطريد وغرناطة، 1939م، ص. 25.